

## واقع البحث الجغرافي : وجهة نظر

أ.د. مضر خليل عمر

### المقدمة ،

هذا مقال يعرض وجهة نظري الشخصية في مستوى اداء الابحاث الجغرافية في الجامعات العراقية ، ما بعد ٢٠٠٣ على وجه الخصوص ، وقد استمدت بعض الافكار النظرية من كتاب ماريا سالا Maria Sala من جامعة برشلونة الموسوم ((النظرية والمنهج في الجغرافيا)).

لما كانت الجغرافيا علم متعدد المناحي Approaches وعلى تقاطع طرق مختلف العلوم ، لذا اخذت طرائقا ومناهج من العديد من الحقول التي على تماس معها في الموضوع والاهتمامات . ففي جانب فانها تعد من علوم الارض او العلوم الطبيعية ، مع الجيولوجيا و علم الانواء الجوية وعلوم الحياة ، وفي الجانب الاخر فلها صلة واسعة مع العلوم الاجتماعية من التاريخ والاقتصاد و علم الاجتماع . ففي الجامعات البريطانية يرتبط موقع و اسم قسم الجغرافيا مع اقسام : علوم الارض ، البيئة والايكولوجيا ، العلوم الاجتماعية ، وغيرها . ولهذا السبب يلتبس الامر عند الكثيرين ، وحتى ان الجغرافيين أنفسهم مستمرون في التساؤل عن اهداف وطرائق الجغرافيا و وحدتها (طبيعية وبشرية) . مع هذا فان وحدة الجغرافيا كعلم لا يمكن ان تكون في المنهج لانها تستخدم طرائقا مأخوذة من مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية . وهذا التنوع في الاتجاهات جعل علم الجغرافيا حساس جدا لمسائل التلاقي عند التقاطعات ، وعلى وجه التحديد ، في ما يخص الحاجة الى معرفة عالمية في صلب المشكلات الاجتماعية .

### المبادئ العلمية الاساس ،

كما في جميع العلوم الطبيعية فان ابحاث الجغرافيا الطبيعية تتبع مبادئ العلوم العقلانية Rational Science التي تعد العلم كتنظيم او نشاط منطقي ، وتستند التقييمات فيها على الاسباب . ولقد تطورت العلوم عامة و انتقلت من المنحى الكلاسيكي الى المنحى الحديث النقدي العقلاني .

والعلوم الكلاسيكية او التجريبية والمسائل العلمية ومنذ فرانسيس بيكون في القرن السادس عشر والتي تعد المعرفة العلمية مؤكدة حيثما تستند على الملاحظة و التجربة والقياس . والخبرة تكتسب من خلال الملاحظة وممارسة التجربة ، وما تم تمييزه عن المصادر الاخرى من المعرفة .

يؤكد المنحى الكلاسيكي على ان المعرفة تنمو من خلال الصبر والمواضبة وتراكم الحقائق الموثق منها وتجميعها مع البيانات المدركة من خلال الحواس . والمفهوم الرئيس عندهم هو الاستقراء induction ، أي ، العملية التي تشتق من خلالها عمومية موثقة من مجموعة من ملاحظات الواقع . والعموميات الاستقرائية

تتشق بعد أن يتم تجميع الحقائق عن الموضوع قيد الدرس ومعالجتها . ومن الأمثلة على هذا الاستقراء عمل جارلس دارون .

وفي القرن العشرين ، قبل المنطق الوضعي لاوكست كونت و وجهة نظر الكلاسيكيين مع السعي لاضفاء صرامة اكثر للتقييمات من خلال معالجة ثلاثة مشاكل : التحقق من النتيجة ، الاستقراء ، و الملاحظة المبنية على نظرية . وعملية التحقق verification تمثل راب الصدع في الحقيقة المجربة وتفسيرها من قبل من لاحظها او العالم – الباحث ، الذي لن يكون متاكدا من ان حواسه سليمة وغير منحازة إلا بعد التحقق من ذلك . والاستقراء هو القاعدة التي يمكنها تعليل حقيقة الخلاصة المستمدة من مجموعة من النصوص عن حالة معينة ، او تعليل نص عالمي يستند على مجموعة من الاشياء المستقلة . واعتماد الملاحظة على النظرية مهم جدا لان مفردات النظرية تدخل في صلب تقارير الملاحظات .

ومن الشكل التوضيحي رقم (١) يتضح أن عملية الاستقراء تبدأ بالخبرات الإدراكية للباحث او طالب العلم ، التي قد تكونت وتبلورت من خلال ملاحظة الواقع و متابعة ما يجري فيه ، و نتج عنها مجموعة من الحقائق غير المنظمة ، التي تتطلب تأملا بها ، وبما يؤدي الى تعريفها ، ثم تصنيفها الى فئات او مجاميع و قياسها ، وفي ضوء ذلك يتم تراتبها وتنظيمها بما يسهل عملية الاستقراء واشتقاق عمومية منها . وباعتماد العمومية يمكن صياغة قوانين التي تشكل ركائزا وأساسا لصياغة نظرية عن الموضوع قيد الدرس وتفسيره .

ان النقد العقلاني لكارل بوبر يشكل بديلا مهما للسياق الكلاسيكي أنف الذكر ، حيث قال بان الطريقة العلمية ذات خصائص استدلالية بشكل جوهرى ، ولها القدرة على دحض النصوص الكاذبة وليس التحقق منها ، وبهذا فهي تميز النصوص العلمية عن غيرها . وان المبادي الاساسية التي تستند عليها هي : دحض ، نقد ، وفصل . يشير المبدأ الاول الى ان النصوص العامة والنظريات هي قابلة للدحض والتفنيد وليس التحقق منها فقط ، والثاني ، لأن المعرفة العلمية تأملية تنمو من خلال عملية التجربة والخطأ وليس عن تراكم الحقائق لذا فان الموقف العقلاني منها يكون بنقدها وتمحيصها . والمبدأ الثالث ينص على أن خصائص النصوص العلمية قابلة للاختبار التجريبي لذا هي قابلة للدحض او القبول .

حدد جونستون ثلاثة انواع من الابحاث في الجغرافيا البشرية ، التجريبية ، والتفسيري ، والنقدي . وفي المنحى التجريبي (التحليلي) فان المعرفة تأتي من الخبرة مباشرة والعمل التجريبي بتسجيل المعلومات ضمن هيكل مفاهيمي موثق و مبرهن عليه . وبالنسبة للجغرافيين لما قبل ١٩٤٥ فان عملية جمع المواد وتسجيل الملاحظات ضمن هيكل عمل يحدد البيئة الطبيعية كمحدد رئيس لانماط النشاط البشري على سطح الارض . وفي منطق الفلسفة الواقعية فان الهدف ليس الوصف

فقط بل والتفسير ايضا . وان الحالات المفردة هي نماذج يشتق منها القانون العام ، موفرا اداة للتوقع المستقبلي . في الجغرافيا الطبيعية يعتمد التفسير على القوانين الطبيعية ، اما في الجغرافيا البشرية فان القوانين الاجتماعية التي يركن اليها في عملية التفسير .

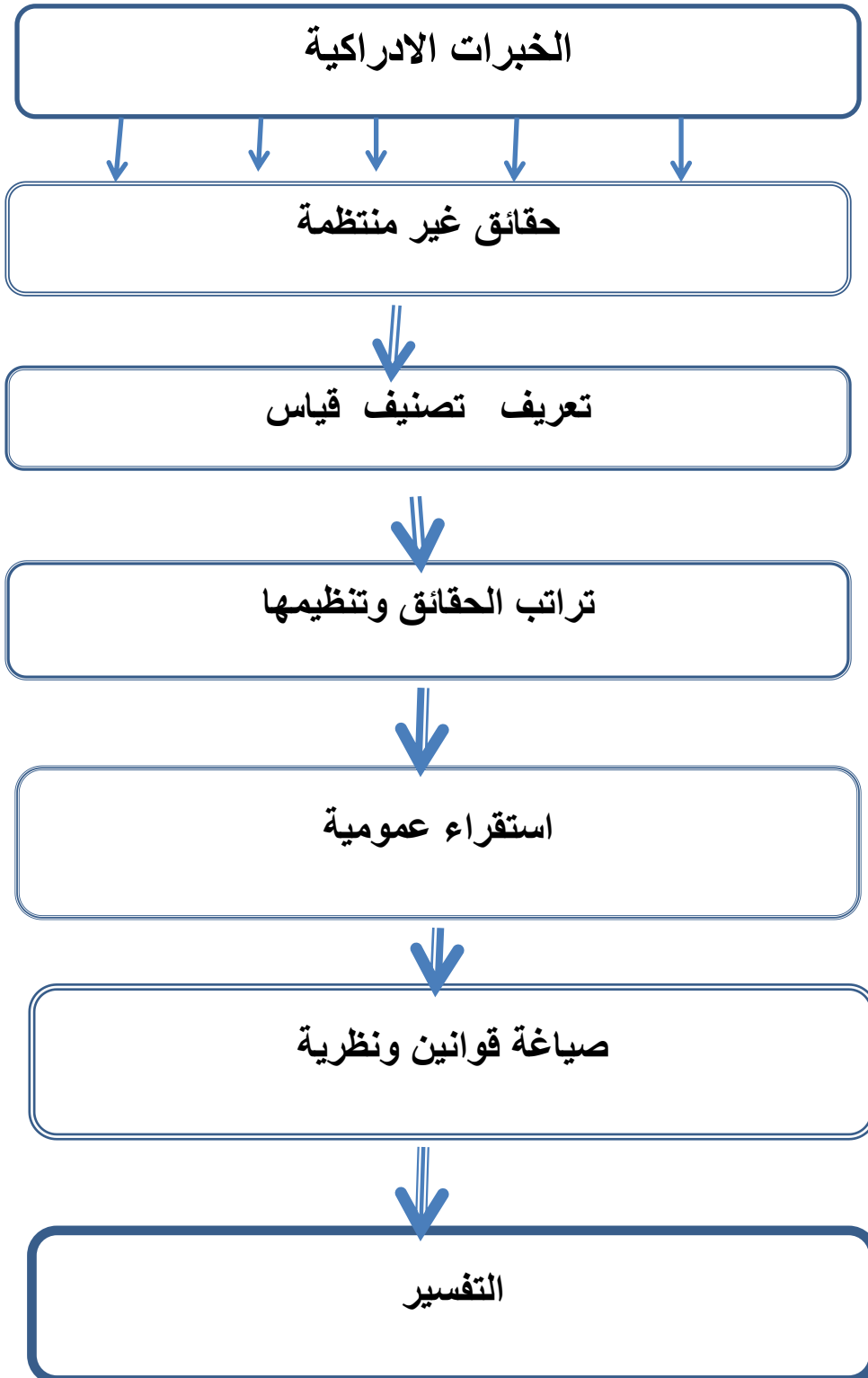
يرفض المنحى التفسيري وجود فاصلة بين العالم التجريبي والباحث . فليس هناك ملاحظات او وصف محايد وذلك لان تفسير العالم يتم من خلال ما يدركه الباحث ونظام قيمه ومعانيه ، والتي تكونت من من قبل الافراد عبر عمليات مستمرة ومحفزات متشابهة . و العلم النفسيري لا يقدم تفسيرات بل استيعال للموضوع قيد الدرس . والهدف تثمين ما يؤمن به الناس ، وكيف تطورت معتقداتهم ضمن المجتمع ، وكيف يستندون عليها في افعالهم .

ولم يتقبل المنحى النقدي لا عقلانية الحتمية ولا احتمالية التفسيريين ، طبقا لعلماء هذا المنحى فان الناس يعيشون في مجتمعات ذات تنظيم معقد انتج لضمان ان كل واحد من افراد المجتمع (يوما بعد آخر) و المجاميع (الاجيال) تبقى حية . و تضم منظماتهم ضوابط يجب ان تعمل لديمومة المجتمع والحفاظ عليه من التداعي . والافراد احرار في تفسير الضوابط وبطرق مختلفة طالما لا يتقاطعون ولا يجتازون حدود المقبول اجتماعيا . لذا من الضروري تثمين الضوابط الرئيسية التي يعمل وفقها المجتمع لتحقيق استيعاب جوهري لها . فالهدف هنا ضمان استيعاب الناس للضوابط التي يعمل بها المجتمع . وحالما يتحقق ذلك وتدرک اساسيات المجتمع بمفردات تقنية حينها يتحرر الافراد من القيود ، وبامكانهم ، اذا رغبوا ، المشاركة في تحويل المجتمع و تغيير ضوابطه الى مجموعة اخرى تكون اكثر قبولا من المجتمع . فعملية التطور والتقدم مأخوذة في الحسبان ولكن ليست كإنفلتات غير منضبط .

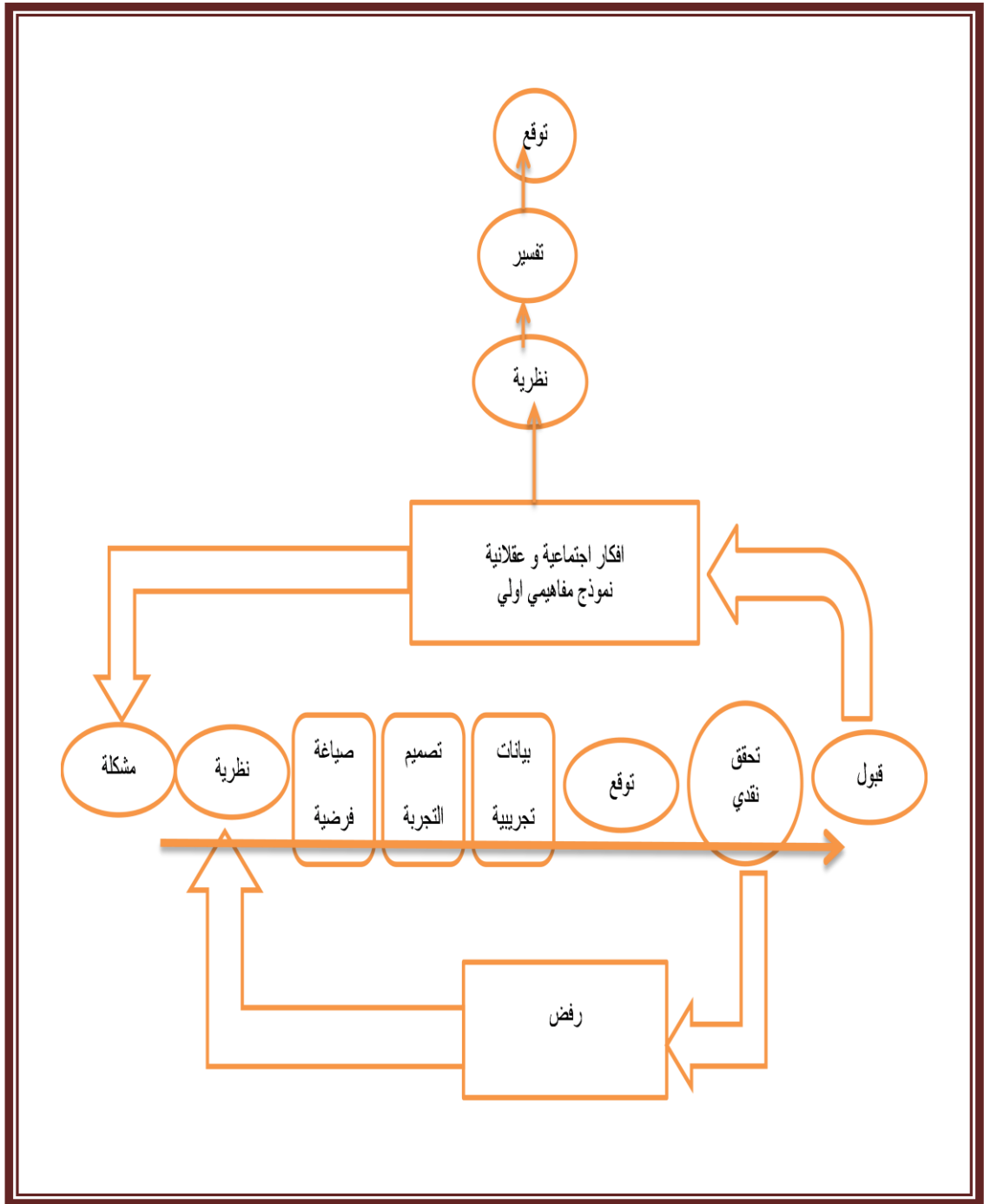
الشكل رقم (٢) يوضح المراحل التي يمر بها الباحث في عمله في الجغرافيا البشرية . فهدف بحثه خدمة المجتمع وتطويره و تقديمه بشكل مباشر وغير مباشر . انه يبدأ من الافكار والمفاهيم العقلانية كاحساس بوجود مشكلة ما تتطلب التقصي والغور في اعماقها بقصد تفسير سبب وجودها و تقديم تفسير لها يساعد في اتخاذ اجراءات علاجية و/ او وقائية لاحقا . و عند تأمله للمشكلة فانه لا بد وان يستند على نظرية علمية تعينه في صياغة الفرضية ، واستنادا على فرضيته و النظرية فانه يقرر نوعية التجربة التي سيقوم بها و يصممها بشكل يعينه لتحقيق الهدف من اجراء البحث . بعد ذلك يبدأ بجمع المعلومات والبيانات المطلوبة - المناسبة ، ذات الصلة بعملية اختبار الفرضية ويعالجها ، و من ثم يعمد الى عملية التحقق من دقة

توقعاتها و بصيغة نقدية متجردة ، وحالما يتحقق من صواب النتائج تقبل لتضاف الى رصيد المعرفة و الافكار الاجتماعية الاخرى . وفي حال عدم القبول ، حينها ترفض و تعود اجراءات البحث الى مرحلة النظرية والمرور بالمراحل وكما مبين في الشكل رقم (٢) . ومن الشكل نفسه يتضح ان الاضافة الجديدة للافكار الاجتماعية ستغذي النظرية وتساعد في عملية التفسير و التوقع لما يمكن ان يحدث في المستقبل القريب .

شكل (١)



شكل (٢)



### وجهة النظر ،

في رحاب الجامعة والعمل الاكاديمي ، من الجوهرى ان نميز بين العارف (لديه معرفة) ولديه اسلوبا وطريقة في اىصال المعلومة ، وهذا يمكن ان يكون تدريسيا ناجحا وبجداره . وبين من يبدع عندما يفكر في معالجة مشكلة بحثية ما و يعدها تحديا له ولاختصاصه الاكاديمي والمهني . وقد لا ينجح هذا في عملية اىصال المعلومة ، كتدريسي ، ولكنه منتج

فكريا. فالباحث العلمي هو من يقوم بتحويل المعلومة الى معرفة ، انه ينتجها . فالباحث الجيد هو منتج لمعرفة جديدة تضاف الى المعارف الموجودة اصلا وتنقحها ، إنه منتج لمعرفة يمكن استثمارها لمعالجة المشكلة المعنية من قبل اولي الأمر . اي انه يساهم عمليا في رفق الفكر (النظرية) و التطبيق العملي لها . وبهذه الصيغة يحدث التقدم ، في الاختصاص وفي المجتمع . وبالتأكيد ان ما يتوصل اليه الباحث سيعزز مسيرته الجامعية كتدريسي طالما أنه يضيفها الى ما يقوم بتدريسه من معلومات في المنهج الدراسي وكخبرة في الاشراف والتوجيه العلمي ، و بما يؤشره من مجالات تتطلب البحث والنقصي وما يثيره من تساؤلات بحثية .

تتسابق الجامعات في استحداث وحدات ومراكز بحثية تخصصية و متداخلة التخصصات بقصد تطوير الجامعة من خلال تعزيز البحث العلمي فيها و ايجاد بيئات تشجيعية وتوفر مستلزمات بحثية لا تتوافر لدى الاقسام العلمية . ويبدو ، والله العالم ، ستتفرغ الاقسام العلمية للتدريس و تحتكر الوحدات والمراكز البحثية الميدان البحثي ومستلزماته .

من المؤلم جدا ان سياقات البحث العلمي في جامعاتنا ، من حيث الاجراءات و طبيعة عملية التقييم وما يصاحبها وماهية الدعم المادي والمعنوي و مضمون البحث واهدافه ، بعيدة عن الموضوعية وعن كل ما يؤدي الى تقدم حقيقي في مجال الاختصاص . ولا اريد الخوض في عملية التقييم ، لما لها من ملاسبات وشجون و متشعبات لها اول وليس لها آخر . ولا عن الدعم وذلك لان كتابة بحث الان مقتصرة لأغراض الترقية في السلم الاكاديمي وليس للارتقاء العلمي ، ولهذا امتيازاته المادية والمعنوية . ما اود أثارته للنقاش والحوار النقاط الآتية :-

(١) انجز العديد من الاطاريح والرسائل العلمية عن بنية المدينة وتركيبها الداخلي ، معتمدين نظريات التركيب الداخلي للمدينة (الدوائر المترازمة والقطاعية وتعدد النوى) ، هل استخلصت هذه الدراسات في مجملها أن هناك نموذجا خاصا بالمدينة العراقية يميزها عن غيرها من المدن ؟ لقد بقيت هذه الكتابات مفردة ليس لها علاقة ببعضها البعض ، تكرارا (للباترون) باماكن مختلفة . كذا الامر مع نظرية الاماكن المركزية وتطبيقاتها ، وغيرها . الى متى عملية الاستنساخ غير الواعي ؟ متى تاتي الاضافة النوعية ؟ عملية التعلم والتطور تبدأ بالتقليد أولا ، ثم الاضافة ، يليها التجديد ، وصولا الى الابتكار ، ما هي الاضافات التي تحققت خلال المدة السابقة (١٩٦٩ وما بعدها) في مجال دراسة المدينة العراقية ؟ ويصح هذا ايضا بالنسبة للدراسات الجغرافية الاخرى .

(٢) ولعل السبب الكامن وراء عدم الربط بين الابحاث التخصصية ، على مستوى القسم من جهة والبلد باكملة من جهة اخرى ، هو غياب الاستراتيج البحثي ، وعدم وجود مدرسة جغرافية معينة تضع بصمتها على نتاج اي قسم من اقسام الجغرافيا في جامعاتنا . ففي بعض الاقسام برزت اسماء لامعة يشار لها بالبنان ، ولها ما يميزها في مجالي البحث والاشراف العلمي ولكنها لم تتبلور ولم يتمحور حولها الطلبة ولم يتم تبنيها بما يكفي لتشكل مدرسة فكرية مميزة . وقد تصاعدت اصوات في مرحلة سابقة تنادي بمدرسة عربية للجغرافيا واخرى تطالب بتشكيل مدرسة عراقية للجغرافيا ولكنها سرعان ما بهتت واختفت .

(٣) الاحصاء والخرائط ونظم المعلومات الجغرافية تستخدم الان بكثرة ، ولكن ، في ما يخص الاحصاء على وجه التحديد ، فان لكل طريقة احصائية متطلباتها من نوعية البيانات وصيغة المعالجة ، والهدف الذي تفسر في ضوءه النتائج . وكما في باترونات

الخيطة، فان لكل باترون مناسبته و نوعية القماش ، وما يتوافق معه من مكملات زينة ، كذا الحال مع الطرائق الاحصائية . نجد في كثير من الاحيان سوء استخدام للباترون من حيث المناسبة او نوعية البيانات مما يعطي نتائج خاطئة ، تكملها (الاكسسوارات) المفروضة بدون حاجة بقصد الواجهة فقط . اما تفسير النتائج فلا علاقة له بالنظرية ولا تقارن النتائج مع ما توصلت اليه الابحاث المناظرة التي اشير اليها في مبحث الدراسات السابقة . فالنتيجة توصل لها الباحث لوحده فقط ، وتوقف عندها . مما يعني أن دورة المنحى الكلاسيكي حيث النظرية هي البداية وعندها النهاية لم تكتمل ، (شكل رقم ١) . وبتنامي استخدام الحاسبات والبرمجيات فقد طغت الشكليات المظهرية على المتن و الجوهر ، واصبحت التقنيات ، بمختلف انواعها الهدف الذي يتسابق طلبة الدراسات العليا(على وجه الخصوص) للتمكن منها واستخدامها حيثما امكن ذلك .

(٤) بغياب المدرسة الفكرية ، وعدم دراسة الفلسفة ، وفلسفة العلم على وجه التحديد ضمن مناهج الجامعة (الاولية ، والعليا) ، وتغليب التقنيات المعاصرة على موضوع البحث فان الاضافات النوعية لعلم الجغرافيا من قبل الجغرافيين العراقيين امر مشكوك فيه ، وبحاجة الى دراسة تحليلية ومعالجة جذرية .

(٥) إن تمكن الجغرافيين من نظم المعلومات الجغرافية واستخدامها ليس لرسم الخرائط الرقمية فحسب بل في التحليل المكاني ورسم السيناريوهات المحتملة ، وتوجه العلوم الاخرى الى الاشتراك والتداخل لدراسة الظواهر الطبيعية والبشرية والحوكمة الالكترونية يعطي الجغرافيين فرصة واسعة لا مثيل لها للانتقال النوعي الى علم تطبيقي يخدم المجتمع . الخوف هنا ، من الانجرار مع الموجه والابتعاد عن التخصص وانكار اهميته ، خاصة ان استيعاب فلسفته غير مضمون .

(٦) لذة اكتشاف الجديد من المعرفة ، ومتعة الحوار العلمي الهادف ، وتبادل الاراء بقصد الافادة والتطور مفقودة عند الكثيرين ، الجغرافيين وغيرهم . لذة العلم بالجديد المكتشف وتبادل الرأي مع الاخرين ومناقشته بعقلية ناضجة وافق واسع وتقبل النقد و ممارسة النقد البناء . وبدون بيئة اكااديمية تتسم بهذه السمات ليس هناك علم بالمعنى الحقيقي . فالنقاشات والحوارات والمناظرات تكون ، في غالب الاحيان ، حوار الاطرش والخرس ، او لاثبات الذات على حساب الاخرين ، مع شديد الاسف .